

الباب الثاني عشر

فترة الكُمون^(١)

يتم التطور الذي تكلمنا عنه في الغريزة الجنسية في حوالى سن الخامسة أو السادسة ، ويدخل الطفل بعد ذلك في مرحلة هادئة من حياته يطلق عليها اسم فترة الكُمون — وتستمر فترة الكُمون حتى بدء المراهقة .

وهذه المرحلة كما يدل عليها اسمها تتميز بالخلو من كثير مما يظهر في المرحلة السابقة من علائم التمرد والثورة والصراع عند الطفل .

ونحن نذكر الفرق الكبير بين الطفل في السنوات الخمس الأولى من حياته ، وبينه فيما بعد ذلك وقد رُوض وأصبح سهل القياد ، مطواعا ، خاضعا لما يفرض عليه . ومن الغريب أن الناس قد اختاروا هذه السن من زمن طويل ، لبدء تعليم الطفل ، فكأنهم ينتهزون فرصة هذه الفترة الهادئة في حياته لبدءوا في مهمة التعليم الشاقة .

وإذا أردنا أن نُكوّن صورة واضحة للفرق بين الحالتين ، فلنتذكر الطفل الرضيع وانفعالاته الجياشة بالرغبة والخوف : والألم والحب ، ولنتذكر أن انفعالات الطفل أقوى بما لا يقاس من انفعالاتنا ، ولا يشبهها في حياة الراشدين من الناس ، إلا المخاوف العنيفة ، كالكابوس الذي يأتي النائم . وذلك لأن الطفل في مبدأ حياته ، حينما يكون ضحية الخوف أو الحرمان ، يشعر أن ذلك الخوف وهذا الحرمان ليس لهما نهاية تنتظر ، وليس بعدهما أمل يرجى ، لأنه ليس في تجربته ما يؤدي به إلى عكس هذا الاعتقاد ، ويشب الطفل قليلا قليلا ، وتزيد مطالبه من الحياة ، ويزداد إدراكه لرغباته ، وتمر به ساعات هناء وسعادة تجاب فيها هذه المطالب ، ولكن تمر به ساعات شقاء يحرم فيها مما يرغب فيه ، بل ويفرض عليه أن يقوم بأشياء لا يرغب فيها ، ويرى حوله قيودا ونظما

لا تمت إلى رغباته ، ولا إلى ادراكه بصلته ما . فيثور ويثور ، ويحاول الفكاك من هذه الحال ، وفي أثناء ذلك تجيش نفسه بعواطف الحب والكراهية ، والخيرة ، والرغبة في الانتقام ، وتنتهي الموت لمخالفته ومناقضته ، ومن منا لا يذكر ثورات الغضب الشديدة التي تمر بالطفل وهو في حوالى السنتين أو الثلاث ، من العمر ومن منا لا يذكر صراخ الطفل وبكاءه ساعات طوالا ، بكاء الفيل والثور إذا أهمل أمره ، وإصراره على الامتناع عن تناول الطعام ، ومثله للوجع . وهيهات أن يكون هناك أثرا تصنع الأم أو الأب عند ذلك من رجاء أو تهديد أو ترغيب ، كل ذلك يذهب هباء ، والطفل ينظر وهو جامد ، وقد أقفل فيه ورفض الطعام . من هذا المخلوق النائر ، الخائب الغاضب ، الغيور ، الأناني ، ينشأ الحدث السهل القياد الذي تراه في المدرسة الابتدائية .

ذلك أنه قد دخل في دور الكون الذي "تكن" فيه النزعات إذ تدخل في دور هدوء وقى ، وتقل مظاهر الرغبة والصراع في نفس الطفل ، ويصبح قادرا على التكيف الاجتماعى ، فهو يصنع لغيره ، ويعرف شيئا مما له وما عليه ، ويرغب في التعلم ، ويصبر على بعض المكارة ، ويستقل بنفسه بعض الاستقلال وكل ذلك نتيجة لما بذله الوالدان في تهذيب الشرير الصغير وترويضه ، فقد استمرامه بالقهر حينما بالين أحيانا ، وبالجزم دائما حتى وصل إلى النزعات النائرة إلى هذه الحالة من الحمود والجمود ، ولا شك في أنهما قد كانا عاملين في اعلاء بعض هذه النزعات ، وفي تمهيد الطريق لتكوين شخصية الطفل .

ولكن الغريب أن الطفل يفقد شيئا هاما في أثناء هذا التكوين ، فمن منا لا يذكر الطفل ذا الثلاث السنوات أو الأربع أو الخمس ، ويذكر حيويته الفائقة ، ومعينه الذى لا ينضب من الحيل واللطائف ، وثروة خياله التى لا تقف ، بل وفوق هذا وذلك ، بعد نظره ، ومنطقه الذى لا يعرف المواربة ، والذى يبدو فى أسئلته وإجاباته . هذه "الاصالة" وهذه "الحكمة" وهذه "الحيوية" كثيرا ما تتخذ مع عوامل الغريزة .

وهكذا نجد أننا نحسر كثيرا إذ نخلق من الشيطان الصغير "قوى" طيبا ، لأنه يحسر مع شيطانيته كثيرا من حسناته ، ويكتسب مع الطيبة شيئا من الركود والتفاهة .

وذلك لأن العقبات التي نضعها في طريق تفكير الأطفال ، والقيود التي نحيط بها حيوياتهم ، وأصالتهم ، هذه العقبات والقيود ، تنسحب إلى نشاطهم العام وحيويتهم العامة ، وقدرتهم على العمل والابتكار .

وبعد انتهاء هذه الفترة ، تبدأ الفترة التالية — وهي فترة المراهقة — وفيها يعاود الطفل المرور على المصاعب النفسية التي سبق له أن مر بها في الطفولة ، فتبدو تلك المصاعب التي ظلت كامنة فترة من الزمن ، في صورة جديدة ، ولكنها مبنية على الصورة القديمة ، كالكتاب الذي تختلف طبعته الثانية عن طبعته الأولى ، ولكن يبقى بين الطبعتين شبه لا يخطئه القارئ .

فالمواقف الانفعالية التي دار حولها الصراع في طفولته ، تبقى نواة للاضطراب . فإذا تكررت هذه المواقف ، أو ما يشبهها — واللا شعور يرى التشابه حتى في العرض الطفيف كما قلنا — فإنها تنفجر ثانية ، وتسبب له متاعب نفسية كبيرة . ومن المواقف المتكررة في العادة ، موقف الإبن من أبيه ، إذ يكون ما يبدو من الأب من التحكم ، وما يبديه الإبن من التحدي ، مشوبا بمنف الانفعال القديم . وعلى ذلك تكون فترة الكون مرحلة هدوء بين مرحلتى الثورة العنيفة في حياة الطفل . وكأن الطبيعة تعطي للفرصة فترة للاستجمام ، استعدادا لمطالب الفرصة الجنسية الناضجة ، بعد أن مرَّ الطفل في بدء حياته على الطبيعة الأولى من هذه الفرصة .

ففترة الكون إذن جسر يصل بين العهدين ، ويحمل في باطنه بأمانة كل ما أخذه من العهد السابق ويوصله إلى العهد اللاحق كأن لم تكن هذه سوى فترة استجمام بينهما .

والصورة العامة للطفل في دور الكون صورة "ناضجة" تشبه من بعض الوجوه صورة الرجل الذي جاوز فترة المراهقة ودخل في دور الاستقرار .

فهو أقل أنانية وأقل عنفا في انفعالاته ، يهتم بما هو خارج نفسه ، فيتوجه إلى الأشياء والأشخاص ويوثق العلاقات بينه وبين محيطه الخارجي . وعلاقته الآن ليست كعلاقته عند ما كان طفلا ، إذ أن الأخيرة علاقة من جانب واحد ، علاقة هو مركزها ، والمحيط الخارجي له وظيفة واحدة هي إجابة رغباته ، فإذا قصر في ذلك فهو مكروه . كان مبدأ اللذة هو العامل الأساسي في علاقاته هذه . أما الآن فقد بدأ جانب آخر من هذه العلاقة ، جانب العطاء في مقابل

الآخذ ، وبعبارة أخرى بدأ السلوك يصطبغ بالصبغة الاجتماعية التي يتساون فيها الفرد مع المجتمع .

كذلك يبدأ الطفل في فترة الكون في أن يتلقى أفرادا يكونون له بمثابة الآباء بحكم مركزهم ، أو علاقتهم معه ، كالمعلمين ومن إليهم .

وعلاقته بالأب في منشأ الحياة علاقة متقدمة تضطرب فيها المحبة والكراهية وتتصارعان ، أما الآن فقد تغلبت المحبة ، وطوردت الكراهية ، حتى انحدرت إلى اللاشعور ، وأصبح سلوكك الطفل وكأن له جانبا واحدا هو جانب المحبة والطاعة ، بل إن المحبة تصبح أشبه بالواجب ، منها بالعاطفة ، ولا شك في فتور علائق الأبناء مع آبائهم في هذه الفترة وميلها إلى أن تصطبغ بصبغة الواقعية ، وتنفصل عن الصبغة (الرومانسية) التي تبدو بها في الطفولة ، والتي تتميز بعد ذلك محبة المراهق .

ويبدو أنه من اليسير في فترة الكون أن تنتقل ساطة الأب إلى غيره كالمعلم ومن إليه ممن يشرفون على الطفل ، بل وإلى أى شخص يعينه الأب أو الأم دائما كان أو مؤقتا ، على حين أن هذا الانتقال في الطفولة الأولى أمر يكاد يكون متعذرا ، ولا يحدث إلا ضد كثير من المقاومة .

بل إن الطفل يقوم بنفسه بدور الرقابة على نفسه فهو يتبع الأوامر والنواهي لافي وقت وجود الوالدين فقط ، كما كان يفعل وهو صغير ، بل إنه غالبا يتبعهما وهما بعيدان عنه ، وغير قادرين على مراقبته ، فيقوم هو نفسه بهذه المراقبة ، ومن هذا الطريق تتكون الأنا العليا كما ذكرنا ، فيصبح الطفل وفي داخله عناصر تعمل على كبح جماحه .

ويمكن تلخيص الفرق بين الفترتين في كلمات السيدة (آنا فرويد)^(١) كما يأتي :
”إن العلاقة بين الطفل وأول معلميه (الأبوين) علاقة بين عدوين متضادين فما يريده الطفل لا يريده الوالدان ، وما يريده الوالدان لا يريده الطفل ، والطفل يصر على متابعة أغراضه بكيفية نفسه وبحماسة غير متجربة . ولا يجد الآباء أمامهم طريقا غير استخدام القوة لإرغام الطفل على الإذعان لمطالبهم . وتستمر هذه المعركة التي لا تنكافأ فيها القوى ، والطفل في غالب الأحيان هو الخاسر ، لأنه ضعيف الحول بجانب أبويه .

أما في المرحلة التالية من عمره — فترة الكُنُون — فالموقف غير ذلك بالمرّة ، فالطفل الذي يواجه مذهبیه — أبويه والمدرسين — لم يسد مخلوقاً تعمل نزعاته في اتجاه واحد ، بل لقد انقسم على نفسه ، وحتى لو كانت "أناؤه" لا تزال تتابع أغراضه الأولى ، فإن "أناؤه العليا" — ورثة خلق الأبوين — تكون دائماً في صف المذهب . فكأن المذهب أصبح له حليف في نفس الطفل . وهذه الحقيقة ذات أهمية تربوية فائقة جداً ، إذ أنها تتيح لنا أن نوجه الطفل الوجهة الصالحة بلا ضرورة لاستخدام القهر في هذه السن ، مادام في طاقتنا أن نأجأ إلى هذا الحليف . ويكون من المستحسن إذن أن (تقويه) ، بدل أن نضعفه بتصرفاتنا ، والذي يؤدي إلى تقويته ليس هو القهر بل هو الأخذ بيد الطفل برفق وحزم .

وعلى ذلك فالمدرس أو الأب يخطئ خطأ كبيراً إذ يستمر على معاملة الطفل على أنه عدو ، تلك المعاملة التي قد^(١) تجد ما يبررها في الطفولة الأولى .

وكل ذلك يسهل خروج الطفل من محيطه العائلي ، وانتقاله إلى محيط المدرسة . خصوصاً وأن اهتمامه لا يصبح مركزاً على غرائزه ونزعاته في صورتها البدائية ، بل إن قدراً من الإعلاء يكون قد حدث ، فيبدأ الطفل يهتم بأشياء يصادفها في طريقه ، فيتابعها بكثير من الاهتمام ، بل إنه يهتم بمعظم ما يرى أن الكبار يطلبون منه الاهتمام به ، فيتعلم القراءة والكتابة وأشياء مثل جداول الضرب وما إليها .

وعلى ذلك تكون العلاقة بين الحدث وبين أبويه ومعلميه وغيرهم علاقة تضطبع بصبغة واقعية ، ويغلب أن تكون صبغتها العاطفية معتدلة .

فالأب لا يصبح ذلك المخلوق القوي الكامل ، والأم لا تبقى أجمل من في العالم .

وسلوك الطفل في هذه الفترة لا يكاد يرى فيه ذلك الطابع العنيف الحار الذي يوحى باتجاهاته الجنسية . فما أعظم الفرق بين ضمة الطفل الصغير لأبيه أو أمه وتقبيلهما ، وبين تحية الأبن الأكبر منه تحية رسمية مصحوبة بقبلة على الوجنة أو على اليد .

(١) المقصود هنا أن موقف الطفل العدائي في بدء طفولته قد يثير عند الأب أو الأم نزعات عدائية أو انتقامية ضده ، فهو احتمال نفسي وليس تبريراً تعليمياً .